مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 16 العدد: 02 السنة 2024 ص 417 - 433

تاريخ الإرسال: 2024/05/30 تاريخ القبول: 2024/10/25
تاريخ النشر: 2024/10/30

مسلك القاضي عبد الجبار المعتزلي في الاستدلال المعرفي من الدليل إلى نظرية المعرفة

Elkadhi Abd al-Jabbar al-Mu'tazili's approach to cognitive reasoning From evidence to epistemology

ط.د– كلتومة بن هواري [1]، د. يحي عبد السلام [2]
[1] ke.benhouari@univ-setif2.dz جامعة محمد لمين دباغين–سطيف2 (الجزائر)
[2] jesselem10@gmail.com جامعة محمد لمين دباغين–سطيف2 (الجزائر)
مخبر المقاربة التداولية واستراتيجيات الخطاب

الملخّص:

المعرفة بحسب ما تم بحثها عند المعتزلة ليست عقلية محضة ولا مقيّدة بحسّ ولا بمجرّد الخبر. بل هي كل مجموع من هذه الأسباب، وإن كانوا طوّروها من خلال المعالجة العقلية المنطقية وعلى الوجه الذي يناسب الاعتقاد والفكر لديهم. بعد أن توسّعوا بأدوات جدلية في الدفاع عن مدلولات الوحي واللّغة فكشفوا جوهر المعرفة العقائدية واللّغوية وسرّها وفقهها.

وجاءت آراء المعتزلة في حد إشكال المعرفة وصلاحيتها مرتبطة بشروط نظرية المعرفة عندهم ومحددة بأركان الاستدلال المنطقي وبحثوا بحثا متكاملا في الدليل وأنواع الدلالة فاتضح من بحوثهم العلمية منهج الدليل العقلي وطريقته و أدواته.

أثبت المعتزلة حقائق علمية في اللغة لم يسبقوا إليها في هذه الصفة إلا في أيام الدرس الدلالي الحديث كمفهوم القدرة على الكلام والقدرة على العلم بالمواضعة ثم العلم بكيفية استعمال اللغة ومراد المتكلم مما يعبر عنه. وقد بذلوا في ذلك جهودا لا تقل عن جهود الاستنباط والاستخراج لدى المحدثين.

الكلمات المفتاحية : المعتزلة، الاستدلال، نظرية المعرفة، النظم، الاصطلاح.

Abstract:

Knowledge, according to what was discussed by the Mu'tazilites, is not purely rational, nor is it restricted to sense or mere information. Rather, it is each sum of these reasons, even if they developed them through logical mental processing and in a way that suits their belief and thought.

After they expanded their use of dialectical tools in defending the meanings of revelation and language, they revealed the essence of doctrinal and linguistic knowledge, its secrets, and its jurisprudence.

The opinions of the Mu'tazilites regarding the extent of the forms of knowledge and its validity were linked to the conditions of their theory of knowledge and defined by the pillars of logical inference. They conducted comprehensive research into evidence and types of significance, so the approach, method, and tools of rational evidence became clear from their scientific research.

The Mu'tazilites proved scientific facts in language that they had not previously achieved in this capacity except in the days of modern semantic study, such as the concept of the ability to speak and the ability to know about context, then knowledge of how to use the language and what the speaker intends from what he expresses. They made no less efforts in this regard than the efforts of deduction and extraction among the hadith scholars.

Keywords: Mu'tazilis's , inference, theory of knowledge, systems, terminology.

ط.د- كلثومة بن هواري: ke.benhouari@univ-setif2.dz

1.مقدمة:

علم الكلام هو حامل ميسم الفرق الكلامية وحامل ميسم ثقافتها واهتماماتها وزمانها ومكانها، تبنّته المعتزلة لتدعيم مواقعها الاعتقادية وتعزيز قضايا اللغة في علاقتها بالفكر. لكن الذي يهمنا من التفاعل مع الفكر الكلامي الذي يمتد عبر الفلسفة الإسلامية هو قراءته كمنهج لا كعقيدة، و كطريقة لا كحقيقة، ومرادنا من التدسّس في أعطاف مادته العلمية هو استخراج ما خفي من علم رجالاتها كالقاضي عبد الجبار، ومعرفة القوانين العامة لمسائل العلوم اللغوية لديهم، وإدراك العوارض والتغييرات التي يمكن استيعابها من خلال هذه القوانين العامة.

أساس علم الكلام ومنهجه:

أساس كل مذهب فلسفي أو كلامي منهجٌ لنظرية معرفية. وما من فكر عميق إلا وينتهي إلى هذا الفعل كي يكون له قوله المعرفي والفلسفي في كل ظاهرة إنسانية أو وجودية كبرى، فيشارك في إيجاد الأحكام، ويبحث عن أصول الأشياء الخطيرة ومن ذلك أصل المعرفة بشرط أن يستدل على أصل هذه الثغور المعرفية بالبراهين العقلية والنظرية والحسية والمادية.

وإذا كان أرباب العلوم العقلية من المتكلمين قد وضعوا النموذج الذي يسعون من ورائه في الأمور المعرفية الكبرى إلى أن يجيبوا على جميع الأسئلة حول كل ما هو ديني أو نفسي أو لغوي فإن الحقيقة الموضوعية تقتضي ألا تسقط تلك الأجوبة في التفسيرات الأحادية بل ينبغي لها أن "تَرْبِطَ بَيْنَ كُلِّ التَّفَاصِيلِ، فَتَكْتَسِبَ مَعْنًى وَدَلَالَةً وَتُصْبِحَ جُزْءًا مِنْ كُلٍّ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ مَعْلُومَةٍ جَدِيدَةٍ أَوْ طُرْفَةٍ فَرِيدَةٍ.

فَالنَّمُوذَجُ هُوَ تَجَلٍّ مُتَعَيِّنٌ لِرُؤْيَةِ الإِنْسَانِ لِلْكَوْنِ، الَّتِي تَدُورُ حَوْلَ مَحَاوِرَ ثَلَاثَةٍ: الإِلَهُ– الإِنْسَانُ–الطَّبِيعَةُ، وَهِيَ مَحَاوِرُ مُتَرَابِطَةٌ تَمَامَ الِارْتِبَاطِ"[1] في أحوالها وأصنافها وإن كان في داخلها متغايرات ومتباينات فمهمّة النموذج أن يختارها ويرتبها فهو "مَصْدَرُ الوِحْدَةِ وَرَاءَ التَّنَوُّعِ"[2]، وهذا المطلب – على خطورته– يلزمه قدرة على التأصيل العام للمعرفة الإنسانية إذ بفعل التأسيس يحصل دفع ثقافة وقتل مسلّمات وتغيير أنظمة للتفكير وأمور كثيرة تنشأ عنه فـ "ثَمَةَّ تَرَابُطٌ بَيْنَ اللُّغَوِي وَالدِّينيِّ وَالنَّفْسِي، بَلْ ثَمَّةَ تَرَابُطٌ بَيْنَ كُلِّ مَجَالَاتِ النَّشَاطِ الإِنْسَانِي وَقَدْ حَانَ الوَقْتُ أَنْ نُدْرِكَ هَذَا التَّرَابُطَ وَأَنْ نَدْرُسَ الظَّوَاهِرَ الَّتِي مِنْ حَوْلِنَا فِي تَرَابُطِهَا وَتَشَابُكِهَا وَتَرَكُّبِيَتِهَا"[3] ولا يتيسر ذلك إلا بتحديد المنهجيات التي يبني في ضوئها الإنسان نموذجه الكامن القادر على التفتيش عن المفاهيم وتحريكها في علاقتها بالأشياء فتستوفيَ المفاهيم وجوهها وتزداد العلاقات وضوحا، وهو المعامل الأهم وليس الأوحد بطبيعة الحال في تشكيل هوية الإنسان الفكرية والثقافية. فنحن نذهب إلى أنّ ثمّة تحيّز وهوى في طبيعة النفس الإنسانية تحُول دون موضوعية العلوم و حياديتها "وَبِهَذَا تُصْبِحُ عُلُومًا حَاكِمَةً عَلَى مِثَالِ مُسْتَخْدِمِيهَا إِيدْيُولُوجِيًّا، وَلَيْسَ عُلُومًا بَاحِثَةً وَمُسْتَكْشِفَةً عَلَى مِثَالِ مَا يَجِبُ بِهِ أَنْ تَكُونَ"[4] ومن هنا يأتي التناقض البيّن في بعض النظريات التي تنهي جدلها بنتائج خاطئة في بعض الأحكام وتتعرض للركاكة والهلالة في إثبات مبادئها، وهي منطقة الإشكال الحقيقي. لذا على الإنسان أن يتكئ على العلم الصحيح ويستخدم آلياته السليمة ويتخذه ظهيرا وسبيلا يؤكد به صحة معلوماته ويعزز به براهينها. وهو المسلك العقلي المقبول..

وبهذا المعنى وحده "يُمْكِنُنَا اعْتِبَارُ المَنْطِقِ أَدَاةَ مَنْهَجٍ يُوَجِّهُ سَيْرَ البَحْثِ عَنِ الحَتْمِيَّةِ، فِيمَا تَعَارَفَ عَلَى تَسْمِيتِهِ بـــ"الأَبِسْتِيمُولُوجْيَا" أَيْ فَلْسَفَةَ المَعْرِفَةِ وَطُرُقَهَا المَنْطِقِيَّةَ، المُخْتَلِفَةَ بِاخْتِلَافِ الفَلْسَفَةِ الَّتِي تُسَيِّرُهَا وَهُوَ مَعْنَى Epistemology أَيْ

النَّظَرُ إِلَى الأُمُورِ بِدِقَّةٍ عَبْرَ عَيْنِ العَقْلِ وَالرُّؤْيَةِ مَعًا، لَكِنْ مِنْ أَجْلِ أَيِّ شَيْءٍ فِي نِهَايَةِ المَطَافِ سِوَى الرُّؤْيَةِ الدَّقِيقَة"[5] للظواهر في تبدّياتها الحقيقية بدءا من الحواس التي تتعرفها. فالحس تحقيقا لا يخطئ لكن لو افترضنا أنه يخطئ فلا أقل من الالتزام بما هو صحيح حسا، ومرورا بالتجربة ووصولا إلى العقل ليحكم في النهاية وهذا مما تهتم به نظرية المعرفة.

وعليه يجب أن لا ينفك في ذهن ووجدان كل من يتعاطى البحث الخلافي في نظرية المعرفة أنه لابد من محاورة بين النهج التجريبي المحصور بأسوار العالم المادي وبين النهج العقلي "فَيَتَبَادَلاَنِ النَّصَائِحَ فِيمَا بَيْنَهُمَا إِلَى غَيْرِ مَا حَدٍّ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الصِّلَةَ وَثِيقَةٌ بَيْنَ التَّجْرِبَةِ وَالنَّظَرِيَةِ: لِأَنَّ العَالِمَ الَّذِي يُجَرِّبُ فِي حَاجَةٍ دَائِمًا إِلَى أَنْ يَسْتَدِلَّ، كَمَا أَنَّ العَالِمَ الَّذِي يَسْتَدِلُّ فِي حَاجَةٍ دَائِمًا إِلَى أَنْ يُجَرِّبَ فَلَيْسَ ثَمَّةَ مَنْهَجٌ تَجْرِيبِيٌّ صِرْفٌ، أَوْ مَنْهَجٌ عَقْلِيٌّ صِرْفٌ، بَلْ لاَ بُدَّ لِكُلِّ عِلْمٍ مِنْ أَنْ يَسْتَنِدَ إِلَى التَّجْرِبَةِ وَالنَّظَرِيَّةِ مَعًا"[6] وبناء عليه يمكننا أن ندرك وبكل قناعة تامة بأنَّ الحسّ ليس الشكل الوحيد للعلم والمعرفة. فالعلم أعم والتجريب شكل واحد من أشكاله ومصدر مضاف إلى المصادر أو الوسائل المتبقية والمتمثلة في: العقل والمسلَّمات والخبر، و "آيَةُ ذَلِكَ أَنَّ مَفَاهِيمَ العِلْمِ تَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا جَوْهَرِيًّا عَنْ مَفَاهِيمِ النَّزْعَةِ التَّجْرِيبِيَّةِ الَّتِي تَتَوَقَّفُ عِنْدَمَا يُقَدِّمُهُ لَنَا الإِدْرَاكُ الحِسِّي العَادِيُّ مِنْ مَوْضُوعَاتٍ مُنْفَصِلَةٍ مُشَتَّتَةٍ"[7] وهي نقطة ضعف المذاهب المادية التجريبية لأن وظيفة الحس في بناء المنظومة المعرفية أن يدخل إليها مدخلات حين يرصد الأشياء و يرصد آثارها، ومن تفاعل الحس مع العقل والبدَهيات يستنتج الإنسان وجود هذه الأشياء من آثارها وإن لم تكن موجودة.

وبالاعتماد على أهم تلك المصادر "نَسْتَطِيعُ الِانْتِقَالَ إِلَى شَكْلٍ أَعْمَقَ مِنَ المعْرِفَةِ، إِلَى شَكْلِ المعْرِفَةِ الَّذِي يُعْطِينَا إِيَّاهُ العِلْمُ مَعَ مَفَاهِيمِه؟ ..و نَبْلُغُ دَرَجَةً جَدِيدَةً مِنَ المعْرِفَةِ: مَا بَعْدَ الدَّرَجَةِ الحِسِّيَةِ: الدَّرَجَة العَقْلاَنِيَّة"[8] فكسب المعرفة بالعقل أمر

متحقق، والحاكم في النهاية هو العقل في كل المراحل لكنه يحكم بمعونة الحس أحيانا وبمعونة التجربة أحيانا وبمعونة الخبر أحيانا. إذا فمصادر المعرفة كما نرى متعددة، وثرية بمنابعها المختلفة وبـ "قِيمَةِ مَا يَصْدُرُ عَنْهَا، وَبِشُمُولِ مَجَالَاتِهَا وَمَيَادِينِهَا، وَطَبِيعَةِ مَا بَيْنَ أَنْوَاعِ العُلُومِ وَالمعَارِفِ المنْبَثِقَةِ عَنْهَا مِنْ عَلَائِقَ وَثِيقَةٍ وَتَكَامُلٍ فَرِيدٍ"[9] فلا هي عقلية محضة ولا مقيدة بحس ولا بمجرد الخبر، بل هي كل مجموع من هذه الأسباب، وكل سبب معتبر بشروطه ومحدد بأركانه.

المعرفة هي التي تبرر وحدها الاعتقادات الصحيحة من الخاطئة ذلك أن كل قضية فلسفية حين تعد للبحث تستدعي في ذهن الباحث المعنى لكل ما يمت لها بصلة، فالابستمولوجيا هي إطار المنطق من خلال رؤى ميتافيزيائية مختلفة فهي ليست من منظور واحد لقضايا العلم والفلسفة و الفن وحتى اللغة. إذاً فغاية المنطق هي المعرفة وكل ما يخدم تحصيل المعرفة أو تعييرها أو حُجّيتها وحتى اختبار المعرفة وسبرها. فـ" لَا يَكْفِي الحَذْقُ بِالقَضَايَا وَالقِيَاسَاتِ وَالمقُولَاتِ....الخ مِنْ آلِيَاتٍ مَنْطِقِيَّةٍ، كَيْ يَكُونَ المَنْطِقُ أَدَاةَ كَشْفٍ عَنْ أَيِّ مَجْهُولٍ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِحَاطَةِ هَذَا المجَهُولِ بِالْمَعْلُومَاتِ العَمَلِيَّةِ حَوْلَهُ"[10] لذا فإن أيّ دارس في علم الكلام يعرف أنّ البحث الكلامي لا يمكن الاستفادة منه بدون الخبرة بعلم المنطق وقواعده. فأسلوب المتكلمين مبنيّ على الوجوه العقلية والقواعد العقلية والقواعد المنطقية ويقوم منهج المتكلمين على اعتبار الدلالة العقلية المحضة بأنها الأصل في الاستدلال، ثم ينظرون بعد ذلك في دلالة النصوص.

لذا فإن هؤلاء المتكلمين المحققين: النُّظّار و أرباب العقول إن كان من الصعوبة بمكان أن يُجمعوا على أسئلة لا يمكن أن يُبَتَّ فيها برأي علمي واحد، واختلفوا في شأنها إلى تيارات متعددة، و"طَرَائِقَ قِدَدًا"[11] فإنهم يتفقون – طبعا– على أصولٍ في نظرية المعرفة، وقواعدَ كليةٍ ينطلقون منها، كي يكون الغرض هو الوصول

إلى أساس علمي يمكّن كل ذي بصيرة أن يفهم الصواب فيه من الخطأ. فلا شك في أنهم وإن اختلف بعضهم عن بعض في ماهية القواعد فإن لهم –بطبيعة الحال– ثوابتُ وكلياتٌ يستندون عليها في عمليات الاستدلال بعد أن يقطعوا جبالا وأودية من الاستدلالات في المواضع التي هي أقرب إلى الصواب.

إن الغرض يكمن في الكشف عن حقيقة مسالك النظار وأرباب العقول في بناء المعارف، وإحكام أصول المسائل قبل الدخول في فروعها وإن تتفلسف كل منهم بمقتضى طبيعة إدراكه ومفاهيمه ومعارفه وثقافته. و"كَانَ كُلُّ مَوْضُوعٍ بِمَثَابَةِ سُؤَالٍ أَلْقَوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ثُمَّ حَاوَلُوا الإِجَابَةَ عَنْهُ كُلٌّ حَسْبَ مَذْهَبِهِ"[12] وهذا جوهر التفريق بين المنطق الذي يحد المعرفة ويؤطرها وبين الفلسفة التي تهتم بالوجود و"نَمَتْ وَتَطَوَّرَتْ وَتَعَدَّدَتْ فِيهَا الْآرَاءُ، وَتَشَعَّبَتْ المذَاهِبُ "[13] لذا تسعى الابستمولوجيا خلف حقيقة تلكُم الأسئلة المؤسِّسة للبناء المعرفي الذي لا نلفي في سياق الأجوبة عنها إجماعا فالفلاسفة والمتكلمون قد "تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا"[14] وهم يسعون سعيا حثيثا في شق الطرق في تتبع المعرفة، وخطِّ السبل في إرشاد طالبها، ورسم المعالم في رحلة البحث عنها وكسبها وإدراكها لتكملة حقيقة الإنسانية. ف "بَيْنَمَا يَمْضِي العَالَمُ نَحْوَ الحَقِيقَةِ بِنَفْسِهِ" لا يزال التنافس قائما على الإجابة عن هاته الأسئلة الحارقة التي تحاول نظرية المعرفة أن تعالجها ما بقي الإنسان موجودا وطالت حياته، وما دام مجال الفلسفة منفسحا لسوابق همه وخوارق مواهبه، فهو صانع المعرفة وأصل المعرفة ومنه تتفجر جميع المعارف الإنسانية..

و"لِكَيْ يُحَقِّقَ المَنْطِقُ هَدَفَهُ هَذَا فِي التَّعَامُلِ مَعَ الوَاقِعِ وَحَوَامِلِه أَيْ مَعَ التَّوَاجُدَاتِ الفِيزِيقِيَّةِ وَالمِيتَافِيْزِيَائِيَّةِ، لِفَهْمِ الوُجُودِ كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ كَمَطْلَبٍ أَسَاسِيٍّ لِلْفَلْسَفَةِ، لَا بُدَّ لِلْمَنْطِقِ مِنَ التَّعَامُلِ مَعَ "فَلْسَفَةِ المعْرِفَةِ" بحَدِّ ذَاتِهَا كَيْ يَعْرِفَ حُدُودَهُ وَإِمْكَانَاتِه"[15] فلقد جاءت فلسفة المعرفة بالهيْل والهيْلمان وفيها استطعنا أن ندرك مواطن قوتها وضعفها

في آن، وظن أرباب نظرياتها المتعددة أنهم حين صاغوها ورتبوها أنها تطابق الخارج، وهذا محلّ الخطأ الفادح عندهم، لأن المعرفة البشرية كلها نسبيّة، هذا أولا. أما ثانيا فإنّ الأنساق التي أنشؤوها تظل مقيدة بأحوال وُضّاعها الذين يضعون هذه المعرفة، وبأحوالهم المعرفية والفكرية والتربوية، ناهيك عن صياغتها وفق مطامعهم وآمالهم ومخاوفهم وتنبؤاتهم في مجال بناء معارفهم وأنظارهم وقد علموا "نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ"[16] أنه كان وهما. فـ"لاَ يُمْكِنُ أَنْ تَتَقَدَّمَ المعْرِفَةُ وَلَا أَنْ يَتَقَدَّمَ العِلْمُ إلاَّ بِإِسْقَاطِ الأَفْكَارِ المشَوَّشَةِ، الَتِي تَفْتَقِرُ لِلْوُضُوحِ وَالتَّمَيُّزِ، حَتَّى يَصِلَ الفِكْرُ إِلَى الخُرُوجِ عَنْ طُغْيَانِ الآرَاءِ الإِيحَائِيَّةِ فِي كُلِّ مَا نُفَكِّرُ بِهِ، وَبِذَلِكَ تُوضَعُ كُلُّ الظَّوَاهِرِ تَحْتَ سُلْطَةِ العَقْلِ"[17] وأمر آخر لا يمكن الشك في صدقيته هو أن كل أساس عقدي أخذ به آخذ وآمن به مؤمن فإنه من الطبيعي أن يكون أصل معرفته وميزان نظره وصائغ لغته، فكل من سار على طريقه بنى معرفة على صورة مخصوصة "لِذَا فَفِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ لاَ يَكُونُ لِلْعَامِلِ العِلْمِيِّ/المعْرِفِيِّ التَّأْثِيرُ الحَقِيقِيُّ في تَبَنِّي الفِكْرَةِ وَالتَّصَوُّرِ بَلْ يَكُونُ الأَمْرُ عَائِدًا إِلَى اعْتِبَارَاتٍ أُخْرَى خَارِجَةٍ بِالكُلِّيَّةِ عَنِ المعْطَى العِلْمِيّ"[18] وهو أمر محمول على العادة، وهذا يعني أن التغيير الذي يداخل تراكيب الكلام هو ذاته التغيير الذي يداخل الحياة العقلية والنفسية وكل ما يداخل حياة الناس ويكون له أثر في الطباع والأفكار والصور وضروب المعاني ص83

وعلى أساسه نناقش توجه المعتزلة حين ابتدعوا أصولا عقدية شكلت خلفية معرفية بنوا عليها تصورات عقلانية في قضايا العقل والوجود واللغة في الإجابة عن أسئلة فكرية حينا وكلامية حينا آخر. وهذا يترتب قبل النظر في العلوم والمعارف في تصورهم و أسبابها وتحديد الأسس التي هي قواعدٌ يبنون عليها طريقتهم في النظر إلى مسائل تلك العلوم واعتبار مواضيعها وآثارها، وطريقتهم في فهم الواقع أو الوجود ككل وفي توضيح لوازم العملية المعرفية وتحديد بحوثها الأولية وكشف مواضيعها

التي تختص بها، دون أن نُغفل كثيرا من الاختلافات التي تطرأ بينهم وبين أصحاب المذاهب الأخرى–و يذهبون هذا المذهب بأنه الحق– في قضايا معرفية قد يكون جزء كبير منها عائدا إلى التباينات المنهجية أو إلى تحيزات فكرية مسبقة.

ثانيا: المنطق و المنهج العلمي أدوات نظرية المعرفة:

المنهج العلمي في بناء المعرفة:

نظرية المعرفة بهذا المنطق هي جزء من الفلسفة، وهذا الجزء كان يبحث في أسئلة عامة من نمط: إمكان المعرفة وهل يمكن أن نعرف؟ ومن نمط وسائل المعرفة ومصادرها: كيف نعرف هل بالعقل أم بالحس أم بالتجربة أم بالكشف والإلهام وغيرها من الوسائل والمصادر؟ ما قيمة المعارف التي نعرفها، هل هي مطلقة ثابتة أم متغيرة نسبية؟ و في هذا المستوى الفلسفي يُهتم بالمعرفة العلمية تحديدا وليس بأي معرفة ويُنتقل من هذا الذي تؤطره نظرية المعرفة إلى مستوى آخر يتعلق بفلسفة العلوم تحديدا[19] والتي تبحث في بناء العلم من جهة مفاهيمه ومن جهة موضوعاته، من جهة نظرياته ومن جهة مناهجه. ثم بكيف يؤرخ للعلم؟ وهذان السياقان سياقان جديدان فالعلوم تختلف باختلاف مواضيعها، ثم ينظر في الأدوات والمناهج التي تستعمل في بناء المعرفة الفرعية فيها.

إنّ القول في نظرية المعرفة له مساس كبير بالفلسفات المختلفة من التيارات المتنوعة حيث أنّ "كُلَّ مَذْهَبٍ يُدْلِي بِعَظَمَةٍ فِي التَّفْكِيرِ وَغَطْرَسَةٍ فِي البُرْهَانِ وَهَذَا مَا جَعَلَهُ مَذَاهِبَ كُبْرَى مُتَكَافِئَةً"[20] بمنهجياتها المختلفة وقضاياها المعقّدة وإشكالاتها المتعدّدة، وله من جهة أخرى كذلك مساسٌ بعلم الكلام الإسلامي، فقد سعى المتكلمون من جانبهم أن تكون لهم كلمتهم ومشاركتهم. كل من هذين العِلْمين: علمِ الكلام وعلمِ الفلسفة له اهتمام شديد وكبير جدا بهذا المبحث. ولا يخفى على مطلع أن الفلسفة هي الأم الروحية لعلم الكلام بل على فراشها ولد المتكلمون.

اجتهدت الفلسفة الإنسانية عبر تاريخها الممتد في النظر في كثير من القضايا التي لا تزال توحي بوجود إشكاليات عميقة تندّ بها عن الرأي الفرد والقول الفصل، وما برحت تجيب على قدر الجهد عنها وسنرى كذلك فيما بعد كيف تعامل مفكرو الإسلام ومتكلموه فيها وأبدوا هم الآخرون تصورهم داخل الإطار الكلامي. وأدرك متكلمون[21] يشار إليهم بالأنامل بين الأفاضل والأماثل منذ بدء تاريخ علم الكلام أهمية بناء المعارف الإسلامية بما فيها المعارف العقائدية والفقهية والتجريبية على أسباب المعرفة.

كما تجلى أيضا دور علم الكلام حين كان السبيل الأقوى والأقوم في تنقيح مزالق الفسلفة وإفلاساتها من قبيل الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بنص اللفظ الديني وغيرها مما انشغلت به عقول المتكلمين وأقوالهم وأجوبتهم فيما يتعلق بعلم الاعتقاد، فالخطر في العقائد عظيم والتأصيل فيه أخطر عمل يمكن أن يتوصل به إلى بناء الثقافات والمسلَّمات أو هدم ما قد يؤدي النظر في التأصيل إلى فساده. ولا نغالي في الكلام إذا قلنا إنه نظرا لطبيعة مبحث المعرفة في كونه واسعا جدا ودقيقا جدا وفي كون "مَبَاحِثِهَا مِنْ أَخْصَبِ مَبَاحِثِ الفَلْسَفَةِ الحَدِيثَةِ"[22] فلأنها مرتبطة بالتأصيل في أمور كثيرة لمسائل هذا البحث الخضم بما فيها اللغة، ومن هذا التأصيل خرجت مذاهب متعددة و نظريات للمعرفة متعددة ولكل واحد منها تعريفه المخصوص. لكن قبل أن نشير إلى تعريف هذا العلم وتحديد معناه اللغوي والاصطلاحي ولضرورة منهجية يكون سؤالنا منصبا حول أصالة هذا العلم، أهو قديم أم جديد؟

ثالثا: هل نظرية المعرفة علم قديم أم حديث؟

لا ندّعي القدرة على البتّ في أصالة هذا العلم وفي كونه علما من العلوم التي استحدثها الفلاسفة الإسلاميون والمتكلّمون وكان لها ظل في كتبهم في مختلف فصول علمي المنطق والفلسفة حيث يوجد شيء مبثوث من هذه المسائل تعد بمثابة

إشارات قريبة من معالم نظرية المعرفة أو بحوث نظرية المعرفة كما نعهدها الآن. لكنها مفردة فـ "لاَ تَزَالُ ذَخَائِرُ الفَلْسَفَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ بحَاجَةٍ إِلَى اسْتِخْراجٍ فَجَلاَءٍ فَاسْتِعْرَاضٍ، فَإِنَّ فِي ثَنَايَا الكُتُبِ آرَاءٌ صَائِبَةٌ، وَنَظَرِيَّاتٌ عَلَى جَانِبٍ عَظِيمٍ مِنَ الأَهَمِّيَّةِ. ولكنَّ طَرِيقَةَ التَّأليفِ القَدِيمِ تَتَطَّلَبُ مِنَ الدَّارِسِينَ اليَوْمَ جلَداً وأناةً"[23] أم هو من العلوم التي عكف عليها الغربيون في القرون الأخيرة، وأضفوا عليها صبغة علم مستقل بداية من "جون لوك" في تأسيسه للمعرفة حين أفردها بالبحث المستقل وكتب مقالة "في الفهم الإنساني" أو "في الإدراك البشري" لأول مرة.

لكن نودّ أن نعرض على القارئ خلاصةً حصلناها في حقيقة العلوم وأصالتها نود الإشارة إليها ومفادها أنّ العلوم لا تعرف بالعناوين التي توضع عليها، "العَنَاوِينُ هِيَ الأَلْقَابُ أَوِ الأَسْمَاءُ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ البُحُوثِ المتَعَلِّقَةِ بِمَوْضُوعٍ مُعَيَّنٍ يُضْبَطُ إِمَّا بِحَقِيقَتِهِ أَوْ بِالغَايَةِ الَّتِي يُفْضِي إِلَيْهَا وَتَنْحَصِرُ وُجُوهُ البَحْثِ فِي هَذَا الموْضُوعِ بِجِهَاتٍ تَتَعَلَّقُ بِوَصْفٍ كُلِّيٍّ رَافِعٍ إِمَّا لِلْمَوْضُوعِ أَوْ مُفْضٍ إِلَى الغَايَةِ"[24] فالأسماء والألقاب ليست من حقيقة العلوم وما فعل العلماء ذلك لعلم معين له موضوع قد يكون أمرا واحدا وقد يكون أكثر من أمر واحد بشرط أن يوقف على نوع من الارتباط الكلي بين مسائله لكي لا ينصرف الاسم عند الاطلاق إلى غيره، و لينماز موضوع هذا الاسم من غيره من المواضيع، وليفضي ذلك إلى غاية مرجوة من بحث هذه المسائل المبنية على هذا الموضوع لأنها "مَفْهُومٌ رُكِّبَ مِنْ أَجْزَاءَ وَأُمُورٍ تَقْدِيرِيَّةٍ اعْتِبَارِيَّةٍ لَمْ تُنْتَزَعْ مِنْ شَيْءٍ أَصْلًا وَذَلِكَ كَمَفْهُومِ العُلُومِ وَالفُنُونِ فَإِنَّ أَرْبَابَهَا قَدَّرُوا أَجْزَاءَ اعْتِبَارِيَّةً عَلَى وِزَانِ الأَجْزَاءِ الحَقِيقِيّةِ الِانْتِزَاعِيَّةِ ثُمَّ حَمَلُوا بَعْضَهَا عَلَى بعْضٍ عَلَى وِزَانِ الحَمْلِ الَّذِي يُوجَدُ فِيمَا يُسَمَّى بِالقَوْلِ الشَّارِحِ"[25] ثم وضعوا بعد ذلك لهذا المفهوم ولهذا المركب الاعتباري اسما هو نظرية المعرفة. وهي إن لم تعرف قديما بهذا الاسم الذي صار عنوانا لا بد أن يكون له موضوع معين، بحيث ينضبط

بها التكتل في المسائل بين أجزائه الاعتبارية التي حملوا بعضها على بعض. ولا ينبغي أن تخفى هذه الحقيقة على متبصر وناظر في قضايا متعلقة بالمعرفة وما ينتج بالتفاعل بين مسائلها.

فحتى إن لم نعرف في الإسلام علما خاصا اسمه نظرية المعرفة وحتى وإن لم يعهد لدى علماء الإسلام بحث مجموعة من المسائل تحت هذا العنوان. فلا يعني هذا أبدا أن علماء الإسلام متكلمين أم أصوليين أم غيرهم لم يبحثوا المسائل التي تم جمعها فيما بعد ووضعت في حيثيات اعتبارية تحت هذا العنوان الاعتباري عليها ألا وهو "نظرية المعرفة". فهذا العلم من هذه الحيثية (حيثية النظر إلى مسائله واعتبار موضوعه وآثاره) مهتم به في علوم شتى لدى المسلمين وقبل المسلمين كاليونان في نتاجهم المتواجد بين أيدينا وقبلهم السوفسطائيون[26] وقبلهم ذوو الأنساق الفكرية المتعددة والعقائد والمذهبيات المتميزة على امتداد الحضارات المختلفة..

أمّا إن أردنا علما مسمى بهذا العنوان أي وجود علم بهذا القيد كونه مجموعا تحت نظام أو نسق تنظيمي معين هو "نظرية المعرفة" فالجواب بأنه علم ليس قديما وهو بهذا المعنى نشء غربيّ واختراع أوروبي وتطور فلسفي لما كُتب في كتاب خاص وسمي باسم خاص هو نظرية المعرفة. وهذا ما حصل فعلا من قرون قريبة منذ ثلاثمئة سنة أو أربعمئة سنة كما يقولون. فكثير من الباحثين يقولون إن العلم قد تم اكتشافه أو الكتابة فيه وترتيب مسائله على يد الفيلسوف الأوروبي "جون لوك" وأيضا قبل ذلك بعض الفلاسفة الأوروبيين كتب في هذا المبحث ومنهم الفيلسوف البريطاني "ديفيد هيوم" الذي له أيضا مقالة "في الفهم الإنساني"، ثم اهتم به كثيرون منهم "إيمانويل كانط" حيث كانت أهم نتاجاته الفلسفية تدور حول هذا المبحث مبحث العلم والمعرفة، ولذلك اشتهر لدى كثير من الباحثين أنّ هذا العلم نشأ على أياد غربية.

فنرى أن الإجابة عن ذلك السؤال تكون نسبية لأنها تكون باعتبار التصنيف بأطر أو بتحديدات معينة ولأنها تظل تفتقر إلى ضبط مقدّمة في بيان ماهية نظرية المعرفة وحقيقتها من حيث هي، لأنها من جملة الماهيات الاعتبارية التي لا تحقق لها ولا ثبوت في الأمر نفسه[27] وهنا وحتى لا يشيع منا الخلط بل والخداع كما هو حادث لها ومنها الآن، يتجلى دور الباحث في أن يفصلَ بوضوح بين القضيتين الشائعتين اليَوْمَ هل نظرية المعرفة – من حيث هي علم يبحث عن حقيقة المعرفة الإنسانية وقيمتها وأدواتها، وما يرتبط بتلك العوارض كمراحل المعرفة وحدودها وموانعها وغير ذلك– علم غربي أم علم إسلامي النشأة والأصالة.

هل تم هناك في الماضي عند علماء الكلام أو عند الفلاسفة الإسلاميين بحث موضوع العلم والمعرفة في حقيقة مسائله والموضوعات المنتجة لهذه المسائل، وفي الغايات التي تثمر هذه الوسائل؟ نقول بالضرورة: هذا أمر موجود وليس أمرا مكتشفا. فالبحث النظري في نظرية المعرفة يوجد كثيرا في كتب المسلمين بل وتزدحم كتبهم بمباحثها. فنجد مثلا كتاب القاضي عبد الجبار له مجلد كامل في قضية المعرفة في مباحث النظر. والمعارف أبو بكر الباقلاني في كتاب التمهيد له كلام طويل جدا في قضية المعرفة الغزالي يتحدث في كتابه "المنقذ من الضلال" و هي تجربة متعلقة بباب المعرفة فيما يخص الشك و إنكار الضرورات، و الوصول إلى حد من عدم معرفة المعيارية المطلقة.

الكلام والمواضعة:

من المتكلمين الذين أكثروا من الاستعمال لمصطلحي المواضعة والتواضع نذكر القاضي عبد الجبار في كتابه المغني في أبواب التوحيد والعدل. وله أقوال حول الكلام والمواضعة اللغوية جد صائبة. قال:" المُوَاضَعَةُ عَلَى اللُّغَاتِ...فَلَوْ لَمْ يَتَوَاضَعُوا عَلَيْهَا لَمَا صَحَّ فِي لُغَاتٍ أَدِلَّةٌ تُفْهَمُ بِهَا الأَغْرَاضُ يَقَعُ بِهَا

التَّخَاطُبُ...كَمَا لَا بُدَّ فِي اللُّغَاتِ مِنْ تَقَدُّمِ المُوَاضَعَةِ"[28] وقال: "لِأَنَّ المُوَاضَعَةَ وَقَعَتْ عَلَى اخْتِلَافِ حَالِ الكَلَامِ"[29]، وقال: "مَا يَحْصُلُ العِلْمُ فِيهِ ابْتِدَاءً المُوَاضَعَةُ وَالمُوَاطَأَةُ بِأَنْ تَجْتَمِعَ الجَمَاعَةُ فَيَتَوَاضَعُونَ فَنَصِيرَ تِلْكَ الطَّرِيقَةُ مَعْرُوفَةً مَعْلُومَةً وَمَعْلُومٌ كَيْفِيَّةُ اِسْتِعْمَالِهَا وَتَصِيرَ كَالآلَةِ بِالمُوَاضَعَةِ "[30]

وتعمق القاضي عبد الجبار في دراسة المواضعة إلى حد بعيد. فقد قال: "لِأَنَّ الكَلَامَ لَا يَكُونُ مُفِيدًا إِلَّا وَقَدْ تَقَدَّمَتْ المُوَاضَعَةُ عَلَيْهِ وَإِلَّا كَانَتْ حَالُهُ وَحَالُ سَائِرِ الحَوَادِثِ لَا تَخْتَلِفُ"[31] وقال: "إِنَّ الكَلَامَ إِنَّمَا يَحْصُلُ مُفِيدًا بِالمُوَاضَعَةِ لَا لِأَمْرٍ يَرْجِعُ إِلَى جِنْسِهِ وَوُجُودِهِ وَسَائِرِ أَحْوَالِهِ لِأَنَّ وُقُوعَ الفَائِدَةِ بِهِ يَتْبَعُ المُوَاضَعَةَ وَالعِلْمَ بِهَا بِحُصُولِهَا وَيَرْتَفِعَ بِارْتِفَاعِهَا"[32]

و:"وَلِأَنْ يَقْتَضِيَ هَذِهِ الفَائِدَةَ كَوْنُ الكَلَامِ أَشْيَاءُ مَنْظُومَةٌ فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ بِتِلْكَ الصِّيغَةِ لَمْ يُفِدْ"[33] و:" وَلَيْسَ لِلْمُوَاضَعَةِ تَأْثِيرٌ فِي كَوْنِهِ كَلَامًا كَامِلًا كَمَا لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي كَوْنِهِ صَوْتًا"[34] وهو يقابل دائما بين اللغة كمواضعة وبين الخطاب كاستعمال فعلي للغة. ومن أعمق تحليلاته قوله: "إِنَّا لَا نَقْصِدُ بِقَوْلِنَا" و "إِنَّ الكَلَامَ هُوَ المُفِيدُ" إِلَّا أَنَهُ مَتَى وَقَعَ أَفَادَ. وَإِنَّمَا نُرِيدُ بِهِ أَنَّهُ إِنَّمَا يَصِحُّ وَقُوعُ الفَائِدَةِ بِهِ وَإِنْ[كَانَ] قَدْ يَخْرُجُ مِنْ كَوْنِهِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ حَالٌ تَخْتَصُّ بِالمُتَكَلِّمِ"[35] ، وكان قد قدم لذلك مثالا: "كَلَامُ المَجْنُونِ وَالمُبَرسم قَدْ يُسَمَّى كَلَامًا وإِنْ لَمْ يُفِدْ لِأَنَّ لِلْقَائِلِ أَنْ يَقُولَ: "إِنَّهُ يُفِيدُ فِي أَصْلِ مَوْضُوعِهِ وَإِنْ كَانَ المُتَكَلِّمُ بِهِ لَا قَصْدَ لَهُ"[36] خلق القرآن10.

يريد عبد الجبار أن وضع اللغة صالح للإفادة فهو مهيّأ لذلك فإن لم تحصل الإفادة فهو لأسباب ترجع إلى عجز المتكلم وظروفه أو ظروف الخطاب.

خاتمة:

يبدو جليا في هذا المجال أن تحليلات القاضي كانت أميل إلى البحث العلمي فتأثير المواضعة في دلالة الكلام يتضح في تلك الدلالات الأولى التي

يستغلها المتكلم ويوظفها حسب مقاصده وأغراضه لينتج بها كلاما ينبني في أساسه على المواضعة والقصد. ولكنه لا ينتهي إلى المعاني التي أقرتها المواضعة وإنما إلى علاقات عقلية، فالبيان من أساسيات المنطق واللغة، واللغة طبعا تعبر عن قضايا العقل لكن نحتاج إلى أن تضبط ضبطا منطقيا وينتبه لما يكون فيها من مغالطات لأن اللغة كأداة تواصل، محكومة بـ"النقص" ومفتوحة على "سوء الفهم" أحيانا..

الإحالات والهوامش:

[1] عبد الوهاب المسيري، اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، دار الشروق، القاهرة، ط.1، 2002،1422. ص.05.

[2] المرجع نفسه، ص. 06

[3] المرجع نفسه، ص.05.

[4] منذر عياشي، التلقي وتضايف البلاغة والإعجاز، نزوى العدد.63، 01 يوليو، 2010.

[5] هاني يحي نصري الإسلام والمعرفة الفلسفية، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط.1، 1434هـ-20013، ص16.

[6] زكريا إبراهيم، مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، 1971، ص.134.

[7] المرجع نفسه، ص.135.

[8] روجيه غارودي، النظرية المادية في المعرفة، مرجع سابق ، ص.249.

[9] عبد الرحمان بن زيد الزنيدي، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، مكتبة المؤيد، المملكة العربية السعودية، ط.01، 1412هـ، ص.09.

[10] عبد الرحمان بن زيد الزنيدي، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، مرجع سابق، ص.16.

[11] سورة الجن، الآية. 11.

[12] زكي نجيب محمود، نظرية المعرفة، مؤسسة هنداوي سي أي سي، المشهرة برقم 10585970، بتاريخ2017،3/01/26هاي ستريت، ونسور SL41LD، المملكة المتحدة، ص.07. مع تصرف يسير في النص.

[13] زكي نجيب محمود، نظرية المعرفة، مرجع سابق، ص.07.

[14] المؤمنون، الآية 53.

[15]هاني يحي نصري، المنطق ونظرية المعرفة، مجلة المعرفة، رقم العدد.469، تاريخ الإصدار، 01أكتوبر2002، ص.17

[16] سورة ص الآية.88.

[17] هاني يحي نصري الإسلام والمعرفة الفلسفية، مرجع سابق، ص.22.

[18] عبد الله بن صالح العجيري، ينبوع الغواية الفكرية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1434هـ، ص.11.

[19] اضطر البحث العلمي بتقدم الطرح أن يوجد مصطلحا جديدا هو فلسفة العلوم وأن يوجد له مضمونا علميا جديدا غير المضمون الذي كان سابقا هو فلسفة العلوم وبالتالي يجيب على أسئلة جديدة لم تكن مطروحة على العقل الفلسفي من خلال نظرية المعرفة. ثم تطور البحث قليلا وعوض أن تبقى فلسفة العلوم في هذا العموم صيغ في القاموس العلمي مصطلح ابستمولوجي بدلالته الجديدة وصارت له قوة حضور جديدة خاصة بعد الثورة التي حصلت في مجال الرياضيات والفيزياء في نهاية القرن19 ومطلع القرن20 وصار هذا الميدان ميدانا خصبا ويشتغل فيه كثير من العلماء وكثير من الباحثين في مختلف التخصصات في العالم الغربي.

[20] أبو عبد الرحمان بن عقيل، الخطوط الرئيسية لنظرية المعرفة، مجلة الفيصل، العدد. 01 يونيو، 1978.

[21] ومن هؤلاء المتكلم عبد الجبّار بن أحمد بن عبد الجبّار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله أبو الحسن الهمذاني الأسداباذيّ. وهو الذي تلقّبه المعتزلة قاضي القضاة ولا يطلقون هذا اللّقب على سواه ولا يعنون به عند الإطلاق غيرَه . وكان شيخ المعتزلة في عصره،

[22] أبو عبد الرحمان بن عقيل، الخطوط الرئيسية لنظرية المعرفة. مرجع سابق.

[23] عمر فروخ، نظرية المعرفة عند ابن حزم، المجمع العلمي العربي، العدد.02، 01 أبريل، 1948، ص.201.

[24] أ. سعيد فودة، ندوة نظرية المعرفة – الجلسة الأولى كاملة،
https://www.youtube.com/watch?v=-DnKrt61na8&list=PLjwuoJGaYViZ3LLJcypWzyZam0EXQExo
حوارات داموح – علم الكلام مع الشيخ محمد البردوني الحسيمي

[25] https://www.youtube.com/watch?v=E2h0msqcYfc .

[26]كثير من الفلاسفة يصنفون بحسب تنويعات وتصنيفات الفرق بأنهم سوفسطائيون: منشأ السفسطة في المعرفة والإشكاليات المعرفية هي التي أنشأت السفسطة ويقوم مذهبهم على إنكار حقائق الأشياء، وإنكار البدهيات العقلية، وإنكار إمكانية العلم بها، وهذه بالإجمال مراتب السفسطة ويمكن أن ندرج إنكار إمكانية إيصال المعرفة إلى الآخرين . ولهم مذاهب في شتى العلوم والفنون وقد صارت السفسطة لدى كثير من الباحثين نمط العصر، كفلاسفة ما بعد الحداثة مثلا. وإن كانت جذورهم تعود لما قبل سقراط وقد كان أكثرهم يشتغل بالسياسة وفي تعليم الناس البلاغة وفي تعليم الناس المحاماة كيفية الحكي. فمقصدهم ليس الوصول إلى الحقائق بل نفعي .وقد حددهم الامام التفتازاني في شرح العقائد النسفية في تصنيفات ثلاث: العنادية والعندية واللاأدرية.

[27]أما الماهية التي لها ثبوت وتحقق في الأمر نفسه فهي كل ماهية لها ما صدقات خارجية وذلك كماهية الحيوان والنبات والمعادن وتسمى ماهية حقيقية

[28] القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ، ج.16، إعجاز القرآن، تحقيق أمين الخولي، القاهرة.1960، ص.309-310.

[29] المرجع نفسه، ص.360.

[30] المرجع نفسه، ص.307.

[31] المغني، ج.07، خلق القرآن، ص.92.

[32] المرجع نفسه، 101-102.

[33] المرجع نفسه، ص. 104.

[34] المرجع نفسه، ص.16.

[35] المرجع نفسه، ص.11.

[36] المرجع نفسه، ص.10.